

تیبو سلطان

وآثره على الانجليز

بقلم : احتشام الندوی

« تیبو سلطان » یمتاز بمزايا كثيرة في تاريخ الهند الاسلامي وأن له شخصية بارزة وجهودا مشكورة لرفع مستوى الحكومة الاسلامية في الهند ، وعندما اضمحلت حكومة المغول في الهند وجعلت قوة الانجليز تنمو وتتقوى فيها قام حيدر علي يقاومها حتى أحس منه الانجليز خيفة ، ولم يزل الامر بيده طول حياته في الهند الجنوبية وبقيت حكومة الانجليز وطاقتهم محدودة في مدراس فقط ، وبعد وفاة حيدر علي آل الحكم الى ابنه الشجاع المجاهد تیبو سلطان الذي دعم أسس حكومته في ميسور والهند الجنوبية ، ولكن الانجليز علموا أن حكومة تیبو هي أكبر خطر لنفوذهم وسيطرتهم على الهند ، فعملوا ياتمررون فيما بينهم عن استيصالها وقمع أصلها وهدم بنيانها ، وقد ثاروا على تیبو مرارا ولكنهم لم ينجحوا في مرامهم ورجعوا بخسران مبین ، ثم أرادوا أن يسالوا تیبو سلطان مسألة يامنوا بها الخطر العظيم الذي لم يزل يرقص أمامهم ، فلو كان تیبو يريد الحكومة والعزة والعيش الرغد لقبول صلحهم ولعاش عيشة هنيئة طول عمره وأسرته بعده ، كما عاش (نظام حيدرآباد)

رسالة الصلح مع الانجليز وقال لهم جهارا انه لا يصلحهم أبدا ، وإنما يقوم في وجههم سدا منيعا حتى يخرجهم من الهند ويكون الامر كله لله ، وكتب الى نظام علي خان ملك حيدر آباد معاصره كتابا قال فيه :

« اني أريد أن تكون للمسلمين قوة وغلبة في الهند وأريد أن أضحي بنفسي ومالي في سبيل الله وفي سبيل الاسلام ، وأقصى غايتي أن أجمع شمل المسلمين ، فيجب على المسلمين أن يعاونوني في هذا دون أن يكونوا ظهيرا للكفار » .

ولكن تیبو سلطان لم يرد زهرة الحياة الدنيا ، ولم يلتفت الى الاموال وقناطير الذهب والفضة ، بل وكانت أمامه غايات سامية وأهداف جليلة ومقاصد عالية ، عاش فيها ومات من أجلها ، انه لم يرد مساومة البلاد كالسلع التجارية كما فعل نظام والمرهنة ، وإنما كان همه العظيم أن يقاتل الانجليز حتى يطرد القوة الاجنبية من أرض الهند ويؤسس فيها حكومة اسلامية على دعائم قوية ، فاختار الباقية على الفانية ، والموت في سبيل الله على الحياة المادية ، ورد

قوة جبارة لا يمكن لها أن تهزمها الا بعد مشقة طويلة واتلاف شيء كثير من الاموال والانفس، ولكن من الاسف أن اميرا من أمراء تيبو غدر به ولحق بالانجليز واعدائه الآخرين ، فلجأ تيبو الى القلعة ثم علم الفريقان أن الامر صعب وهناك اصطلاح الفريقان بعد ما أخذ العدو مقدارا كبيرا من المال من تيبو .

وبعد ذلك دبر السلطان أمره وأمر أن تكون اللغة الفارسية اللغة الرسمية في مملكته ، وبنيت المساجد في كل قرية ومدينة في حكمه وعين المؤذن والقاضي ، كما أن السلطان أقبل على تعليم المسلمين فعين المدرسين في المساجد لتعليم أطفال المسلمين، وكان السلطان يصل ليله بنهاره في العبادة وفي تلاوة كلام الله ، وكان يكره الذين يخالفون تعاليم الإسلام ويقتربون الذنوب . وحدث في ذلك الزمان أمر خطير ، وهو أن السلطان قد جعل مير صادق وزيره بل رئيس الوزراء والمسيطر على الامر كله وكان صادق رجلا خائنا غدارا لا يعرف الوفاء والمحبة ، فاقترح على السلطان أن يخرج المهديين الذين لم يزالوا يجاهدون مع السلطان ، ومن الاسف أن السلطان أخطأ حينما عزل أكثر الامراء القديما دون تفكير وقرر الوظائف والمناصب للامراء الذين قد عزلوا من قبل ، أما أبوه حيدر علي فانه اذا عزل أحدا لم يعطه منصبا قط ، ولكن تيبو كان يسخط على أمير ويعزله ، ثم اذا ذهب عنه

هذا ومن الاسف أن حكومة نظام قد ساعدت الانجليز على تيبو واتحد الانجليز والمرهته ونظام ضده وقتلوه جميعا ، واشتد القتال بين الفريقين وكانت الحرب سجالا ، وكاد يهزمهم جميعا ولكن وزيره مير صادق غدره ومكن الانجليز ونظام والمرهته من التغلب عليه . لقد كانت قوة تيبو سلطان أقوى القوات الهندية في ذلك الزمان ، فخاف منها الانجليز على أنفسهم وخاف نظام أيضا وعرفت المرهته قوتها العسكرية وجربوها مرارا فأرادوا كلهم القتال معه واجمعوا على ذلك .

وكان تيبو قد استعد للحرب استعدادا كاملا ، ولما بلغ الانجليز (سرنكاتبم) وجعلوا يشنون الحرب على عساكر تيبو رأوا أن الفتح ليس بيسير وأن تيبو قد عبأ جيشا كثيفا لا يمكن معه القتال وقد حصر الانجليز قلعة سرنكاتبم ، ولم يزالوا على ذلك حتى مضت عشرون يوما ونفذ كل مالديهم من الطعام والفضاء وأصبحت الجنود جياعا ، وأراد الانجليز الرجعة ، وهناك اقترح بعض امراء تيبو بالثورة على عساكر الانجليز ولكن من سوء الحظ أن تيبو سلطان لم يقبل الاقتراح الذي كان مبنيا على الدهاء والذكاء .

وبعد مدة قليلة تقدم عساكر الانجليز ونظام والمرهته الى قلعة سرنكاتبم مرة أخرى ، وثاروا ثورة عظيمة واشتدت الحرب وطالت وعلمت الاعداء أن تيبو سلطان له

رقعة الى بعض امرائه ليقتلوا مير صادق ليلا ومن سوء الحظ أن خادما اطاع على هذا الامر وأخبر به مير صادق فلم يحضر مير صادق في تلك الليلة وأشار على الانكليز أن يقوموا بشورة شديدة ويدخلوا في القلعة ، وكان السلطان جالسا يتعشى اذ أخبر بأن الانجليز دخلوا في القلعة نفسها ، فقال السلطان ها وقد آن الرحيل ، وأمر السلطان عساكره للجهاد وأراد أن يخرج من بعض ابواب القلعة ولكن مير صادق ذهب وأغلق الباب بنفسه كي لا تنجح حيلة السلطان في الهرب فلو هرب السلطان لكان له نجاح باهر ، لان كثيرا من عساكره كانت في مدن اخرى ، وكانت رقعة مملكته واسعة تحتوي كثيرا من المدن والقرى وكلها كانت تحت حكمه بعد وفاته أيضا حتى ردها الى الانجليز سلطان حيدر نجل السلطان تيبو رجا أن يكون ماكا بعد أبيه فوعده الانجليز بذلك ثم لم ينجزوا وعدهم بل أخلفوا كعادتهم .

وهنا جرى الله مير صادق جزاء موفورا ، فحينما أراد مير صادق أن يذهب خارج القلعة أخذه بعض خدم تيبو وقال انك أنت الذي غدرت وخنث وسلمت الملك الى الانجليز وضرب بالسيف ضربة قضت عليه ثم أخذه الخدم وقطعوا جسمه اربا اربا .

أما تيبو سلطان فانه لما رأى المسكر قادما نحوه هجم عليهم وقتل اثنين او ثلاثة منهم ثم أصيب برمح فسي

السخط اعاده الى منصبه ، وهذا مير صادق عزل من اجل غدره وخيانتة مرة ثم أصبح رئيس الوزراء في حكومته وغدر أيضا ، وخان خيانة ذهبت بحكومته .

ان السلطان بعث رسله الى فرنسا وايران وكابل وكان الانجليز لم يزالوا يرتادون فرصة للثورة على تيبو ، فقالوا انه يريد أن يحمل على الانجليز فحشدوا عساكرهم وجاؤوا بجنود لا قبل له بها ، ولكن مع كل هذا كان السلطان رجلا قويا وكانت عساكره قوية منظمة ، أما مير صادق الخائن فقد لحق بالانجليز والمرهنة ونظام ، وسبب للسلطان ذهاب مملكته من يده ، ومن سوء الحظ أن مير صادق قد تمكن في الحكومة من تنظيم جماعة كبيرة ومنحهم اموالا كثيرة ، فقد كان مير ميران ، قمر الدين ، ومير صادق هم أكبر سبب لهزيمة سلطان تيبو وقتله بايدي الانجليز .

وقد اقترح الفرنسيون على السلطان أن يحول عاصمته الى مدينة اخرى في مملكته ، وكان السلطان مستعدا لذلك ولكن مير صادق الخائن حال دون ذلك وقال هذا ما يسبب للعسكر الجبن والخور ويذهب بحماستهم فامتنع السلطان عن هذا .

وقد عثر السلطان على خيانة مير صادق وغدره في وقت لم يكن له حيلة بتدبيره لان سور القلعة كان قد هدم بأيدي الاعداء ، ولكن السلطان كتب

وجهه فقط واستشهد في سبيل
الاسلام .

والتمس الانجليز جثته وجمعوا
اسرته فتيينوا أن هذا هو جثمان
السلطان ودفنوه بكل كرامة في جانب
قبر أبيه حيدر علي .

وكان قتله يرادف القضاء على
حكم المسلمين في الهند كلها وكان
السلطان يرى أن الواجب على المسلمين
في الوقت الحاضر أن يجمعوا امرهم
ويجاهدوا لاعلاء كلمة الله في هذه
الارض ، وكتب كتابا الى محمد بيك
الهمداني قال فيه .

« على المسلمين أن يتحدوا في هذا
الوقت على جند الكفار والمشركين
ويجاهدوا في سبيل الله باموالهم
وانفسهم حتى يكون الدين كله لله ،
ان حكومة دهلي قد اضمحلت . وذهبت
قوتها وروعتها فلو اتحد المسلمون
للجهاد في سبيل الاسلام لم ينسدم
المسلمون على ما فرطوه في جنب الله
امام رسول الله صلى الله عليه وسلم
يوم القيامة .

فتأمل في أفكاره الدينية وعواطفه
الاسلامية وحماسه للاسلام
والمسلمين ، ان مملكته كانت مملكة
اسلامية فقد فتح للمسلمين مناصب
جليلية ولم يكن لغير المسلمين تدخل
في حكومته ، وكان يقضي أكثر أوقاته
في العبادة والتلاوة والتسبيح وما الى
ذلك ، ولكن غدر امرائه وخيانتهم
ساقط الحكومة الى الهزيمة والانهار
ولا شك أن الغدر والخيانة من مرضى
المسلمين في البلاد كلها ، ومن أجل

ذلك وحده خسروا شأنهم وفقدوا
قيمتهم ، وأصبحوا بحيث لا ينظر
اليهم العدو الا بنظرة كلها شك وكلها
ارتياب .

ولكن تيبو سلطان لم يزل بطل
الحرية والاسلام في تاريخ الهند
الزاهر وقد قال شاعر الاسلام
الدكتور محمد اقبال فيه :

« أنت وارد في وادي شوق فلاتبحث
عن المنزل أبدا ولا تقبل على المحمل
ولو كانت فيه ليلي » وان السلطان
تیبو كان يحب العلم والعلماء وكانت
عنده مكتبة كبيرة محتوية على كتب
كثيرة نادرة في «سرتكابتم» ولما فتح
السلطان « حكومة ادھوني » ووجد
فيها مكتبة بسالت خان فزادها الى
مكتبته وأصبحت مكتبته من أهم
المكتبات في زمانه ، أما الكتب التي
ألفت تحت اشرافه فهي « تحفة
المجاهدين » و « مفرح القلوب » .

ولكن لم تسترع هذه المكتبة انتباه
أحد بعد وفاته حتى مضت عليها
سنة أعوام ثم عين بياترك وبعده ميجر
استارت الذي بذل جهودا مشكورة
في جمع الكتب المنتشرة ورتب فهارس
المخطوطات العربية والأردية ، وقد
طبع هذا الفهرس سنة ١٠٩٨ م من
كيمبردج ، ومن العجب أن الانجليز
لم يتركوا تراث تیبو القيم في الهند
بل ذهبوا به الى انجلترا فلم تبق في
الهند منه الا كتب معدودة في مكتبة
آسيا .

وتوجد في لندن ذخيرة من هذه
الكتب النادرة يبلغ عددها ٦٨٧ كتابا .